الملح

من مقالة للاستاذ تشارلس سوبر نشرت في مجلّة العلم العام الاميركية

من الامور الثابتة ان الانسان الحالي مهما اختلفت منزلتهُ في سلّم التقدم الاجتماعي يتناول الملح مع طعامهِ . وربما صحّ هذا القول ايضاً في الانسان الماضي. فقد وجدوا الملح بقرب جميع الاماكن التي قطنها الانسان قديماً او حيث كان يستطيع الوصول اليهِ بلا مشقة كثيرة والحيوان مثل الانسان في ذلك فانَّ معظم الحيوانات الداجنة مولعة بهِ وكذلك بعض الطيور وآكلة العشب تحبُّ اكلهُ بنوع خاصٍّ سواء كانت اهلية او برية . ومن الامور المشهورة ان هنود اميركا وبيضها كانوا يصيدون الغزال والجاموس وغيرهما من آكلة الاعشاب قرب البحيرات المالحة في اميركا لان تلك الحيوانات كانت ترد البحيرات لتتمثّل بمياهها وقد وجدوا عدداً عظيماً من جثث الحيوانات مدفونةً فيها وعلّلوا ذلك بان بعض الحيوانات كان يوغل في البحيرات طلباً لماء الملح حتى يبلغ مكاناً عميقاً فتغور قوائمهُ في قعر البحيرة بمجرد ثقل بدنهِ ولا يستطيع انقاذ نفسهِ فيهلك جوعاً . وبعضها كان يزحمهُ غيرهُ من خلفهِ فيسقط في الماء ويموت اختناقاً

على ان هناك شواهد كثيرة تدلُّ على ان بعض اصناف الناس لم يكن يتناول الملح في طعامهِ . فقد قال المؤرخ سالست ان اهالي نوميديا كانوا يقتاتون باللبن ولحوم الحيوانات البرية ولم يأكلوا الملح ولا غيرهُ مما يسيغ الطعام ويهيج الشهية ويقال ان كلة الملح في لغة اهالي فنلندا مشتقة من الاصل الهندي الاوربي فاذا صحّ ذلك كان دليلاً على ان اهالي فنلندا لم يكونوا يعرفون الملح قبل امتزاجهم بالسلاف وعنهم اقتبسوا الملح واسمهُ . وقد ورد في قصائد هوميروس المعروفة بالاودسي ان العرّاف تيريسياس امر عولس بالسفر حتى يصيب قوماً لا يعرفون البحر ولا يأكلون لحماً مطيّباً بالملح . وروى المؤرخ الشهير تاسيتس ان قبيلتين منها اقتتلتا في اواخر القرن الاول من التاريخ المسيحي قتالاً شديداً على امتلاك نهر يتولد منهُ الملح اعتقاداً منهما ان السماء قريبة منهُ وانهُ خير مكان لرفع ادعيتهم وابتهالاتهم الى الآلهة . وكانوا يستخرجون الملح من مائهِ بصب الماء على حزمة حطب مشتعلة فكان الملح يرشب في الاسفل . والسبب في تقديسهم ماء النهر اعتقادهم ان الملح من مولدات البحر فاذا تولد عن غيرهِ كان ذلك بتوسط من الآلهة

وذكر ابليفيوس المؤرخ الروماني المشهور اموراً كثيرة عن الملح في كتاب " التاريخ الطبيعي " الذي ألفهُ فعدد الاماكن التي كانوا يستخرجونهُ منها في زمانهِ ووصف طرق استخراجهِ وقال ان المواشي تحب اكلهُ وانهُ اذا أُضيف الى طعامها زادت كمية الجبن الذي يفرز من لبنها وتحسنت صفتهُ . وكان الرومانيون يعدُّون الملح قوام الحياة فتحافظ كلُّ عائلة منهم على المملحة اعتقاداً انها مقدسة وعليهِ قال هوراس الشاعر الروماني في احدى قصائدهِ ان الرجل المتمتع بالحياة هو الرجل الذي تملح مملحة ابيهِ على مائدتهِ . وقال في موضع آخر يخاطب رجلاً من اتباع ابيقورس صاحب القاعدة المشهورة " لتأكل ولتشرب لاننا غداً نموت " ان الخبز والملح يسدَّان جوع معدتك الفارغة فخيرٌ لك ان تنبذ اللحوم الفاخرة

ومن القواعد العمومية في فرض الرسوم والضرائب انهُ اذا ارادت حكومة زيادة ايرادها وقع معظم الحمل على ضروريات المعيشة والملح في جملتها . والمرجح ان جميع الحكومات المنظمة القديمة كانت تفرض الرسوم على الملح . فقد كان الرومانيون يأخذون عليهِ رسوماً ولا تزال الحكومة الايطالية محتكرة اياهُ الى الآن وربحها منهُ ١٣٠٠ في المئة فيصير بذلك غالي الثمن لايصير الفقير على شرائهِ . على ان منع الملح عن الفقراء مضر بصحتهم ولا ريب ان تخفيض ثمنهِ حتى يتمكنوا من شرائهِ ويكثروا من تناولهِ يحسن الصحة العمومية بينهم

وليس بين مواد الطعام مادة غالت الحكومات في احتكارها اجحافاً بمصالح رعاياها مثل الملح . فانهُ لما رأت الحكومات ان لاغنى عنهُ في طعام الانسان والماشية اغتنمت تلك الفرصة لزيادة مواردها المالية فقد كانت ضريبة الملح في فرنسا قبل عهد الثورة تختلف باختلاف مقاطعاتها وكانت الحكومة تحظر نقلهُ من مقاطعة الى أُخرى وتحتكر صنعهُ وتستخدم عمالاً يجمعون ما تولد منهُ على السواحل بالتبخير ويلقونهُ في البحر ثانية . فكان غالي الثمن جداً وكانت الحكومة تكره معظم الاهالي على شترى قدر محدود منهُ على نسبة عدد افراد العائلة . ولكنها كانت تميز بعض رعايا وتهبهم من الملح ما يحتاجون اليهِ مجاناً وتمنحهم مالاً مقابل ذلك اذا شاؤوا وتعاقب كلَّ من يخالف قوانين الملح معاقبة شديدة اما بالغرامة او بالجلد او غيرهما من العقوبات . وكثيراً ما كانت تشنق الذين يكررون المخالفة . وكانت تحظر على الفلاحين استعمال الماء الملح الذي يوضع اللحم والسمك فيهِ لحفظهما فلم تكن تسمح لهم بادخالهِ على طعامهم ولا على علف مواشيهم . وتحظر على الاهالي استخراج الملح من ماء البحر وتسمُّ الماء الملح الذي تسمح للدباغين بأخذهِ من البحر لاستعمالهِ في صناعتهم لئلا يدخلوهُ على طعامهم

وكانت قوانين الملح في المانيا اكثر صرامة منها في فرنسا . وبقيت الحكومة محتكرة لهُ الى سنة ١٨٦٧ . اما النمسا فلا تزال حكومتها تحتكرهُ الى الآن مثل ايطاليا وغيرها وهو اغلى فيها منهُ في المانيا . واما الولايات المتحدة الاميركية فلم تضرب على الملح ضريبة ولا جمعت منهُ ايراداً لخزينتها ولكن لما وضع مجلس الامة فيها قانون حكومة الولايات الغربية وبيع الاراضي فيها اشترط ان تبقى مناجم الملح للحكومة خشية ان يستبدَّ ارباب الاملاك بهِ ويحتكروهُ فيقع معظم الحيف والظلم على الفقير من الاهالي

وكان بعض الامم القدماء يضيفون الملح الى ذبائحهم التي يحرقونها للآلهة مثل الاسرائيليين كما نصَّ عليهِ سفر اللاويين اما المصريون القدماء فكانوا يتنجسون بهِ فقد قال فلوطرخس ان كهنتهم كانوا ينبذون الملح عن موائدهم ويأنفون مكالمة ربّان السفينة لانهُ يعمل في البحر ولا يأكلون السمك لانهُ يخرج منهُ . وعاد فقال في موضع آخر ان الكهنة كانوا يمتنعون عن اكل الملح لانهُ يهيج الشهية الى الطعام والشراب ولكن شهادة اليونان عن مصر مجروحة لا قيمة لها لان مصر كانت في اعين اليونان بلاد العجائب والغرائب . فقد كانت بلاد شمال افريقية منذ القدم مستودعاً كبيراً للملح . قال هيرودوتس وعلى سفر عشرة ايام من طيبة عرم كبيرة من كتل الملح على التلال ومن رؤوس تلك التلال تتفجر عيون الماء الملح . ويقطن تلك البقعة قوم يسمون بالامونيين وعندهم هيكل جوبتر امون المشهور . والواحة التي هناك كانت فياعبر قفر مجيرة من الماء الملح ولا يزال فيها ينابيع الماء الملح الى الآن والمرجح ان العقّار المعروف عند اهل الكيمياء باسم "ملح الامونيا او ملح النشادر" مأخوذ اسمهُ من اسم البقعة المذكورة آنفاً اما لانهُ اول ما صنع فيها او لانهُ وجد في حالتهِ الطبيعية هناك

ويكثر وجود الملح في اماكن عديدة من شمال افريقية وعلى مسافة بعيدة من الساحل والاهالي يستخدمون حجارة الملح لبناء منازلهم لا لقلة الحجارة بل لان حجارة الملح اسهل نحتاً ولا خوف عليها من الذوبان لقلة سقوط الامطار هناك وهي ليست من الملح النقي بل مشوبة بالتراب . وبعض اقسام الصحراء مغطى بطبقة من الملح على مسافات طويلة يظهر بها سطح الارض ابيض كانهُ مغطى بالثلج . ومهما يكن في بعض اقوال هيرودوتس وغيرهِ من الكتاب الاقدمين من المبالغة في هذا الصدد الاَّ ان ابحاث المكتشفين المحدثين تؤيد كثيراً من اقوالهم فقد قال المسيو ديبوى في كتابهِ المسمى «غرائب تمبكتو» ان الملح ذو قيمة عظيمة في تلك الجهات مع كثرتهِ واكتشف مناجم ملح في قلب الصحراء وقال ان الاهالي يبنون بيوتهم من حجارتهِ ويسقفونها بجلود الجمال . وهو يوجد في الارض مغطىً بطبقة رقيقة من الرمل

فيستخرج منها كتلاً كبيرة تخت قطعاً طول الواحدة منها ثلاث اقدام ونصف وعرضها قدم وربع ومنظرها كمنظر الرخام الاحمر وفيهِ عروق رمادية اللون ثم تدمغ بدمغة التجار المختلفين ومتى اخذت الى تمبكتو رسموا عليها نقوشاً سوداء وكتبوا عليها اسماء بعض الاولياء بأحرف عربية ثم ربطوها حزماً وباعوها . والبيضاء منها تفضل الحمراء . والسوداني يبذل كل ماعندهُ قياضاً بكتلة من الملح وهو عندهُ اعزُّ من الذهب واغلى

والمالحة دليل الوداد وحسن الضيافة عند القدماء والمتأخرين ولا تزال قبائل السلاف تكرم الضيوف بتقديم الملح والخبز اليهم . والعربي يستحلف خصمهُ بالخبز والملح اللذين بينهما اذا اختلفا على شأن من الشؤون . ومن النصائح القديمة قولهم " قبلما تصطنع صديقاً كلْ معهُ كيلاً من الملح " وقد ذكرها ارسطو وشيشرون في كتاباتهما . وقال احد الشرّاح الاقدمين في شرح هوميروس انهم كانوا يعدون الملح اصدق علائم الوداد اما لانهُ كان يقدم الى الضيوف قبل غيرهِ او لانهُ مضادٌّ للفساد . وورد في سفر العدد ذكر الملح بين التقدمات التي كانت تقدم الى الله عند ابرام العهود والمواثيق

وكان الرومانيون يعدّون الملح ضرورياً لجيوشهم فكانوا يقدمون الى كلّ جندي جراية خصوصية منهُ او مالاً مقابلها يشتري الملح بهِ لنفسهِ . وفعلوا مثل ذلك مع موظفي الحكومة في اسفارهم المختصة باشغالها ثم لما صار الحصول على الملح سهلاً استبدلوهُ بالدراهم ونقدوهم اياها عوضاً عنهُ . ومن ذلك اشتقت لفظة "سلري" في اللغات الاوربية ومعناها راتب او اجرة شهرية

هذا ولايزال العلماء في خلاف على ما اذا كان الملح ضرورياً للحياة الحيوانية او لا . فاذا صحّ ان الحيوانات البحرية لصل الحيوانات البرية فمن الصواب ان نفرض ان مبدأ الرجوع الى ذلك الاصل يهيج في الحيوانات ميلاً طبيعياً الى الملح ليس اكثر . ويقول بعض العارفين من الجهة الاخرى ان آكلة الاعشاب من الحيوانات تجد في طعامها كمية كافية من الملح لسدّ مطالب الجسم الطبيعية ومنها تنتقل الى آكلة اللحوم . والذين يقولون ان الحيوان يتناول كمية كافية من الملح بواسطة طعامهِ يقولون ايضاً ان شدة ولوع معظم الناس وبعض الحيوانات الاخرى بالملح ناشئة عن انحراف في الذوق ويستشهدون على صحة ذلك بشدة ميل الكلاب وغيرها من البهائم الى اكل الحلوى مما يدل على انحراف في الذوق يفضي الى الاضرار بها . ومن المؤكد انهُ ليس بين المواد المعدنية مادة يأكلها الناس بشراهة مثل الملح والمرجح ان مقدار ما يؤكل منهُ آخذ في الازدياد على التوالي . اما اذا كانت الحياة الحيوانية تقوم بلا ملح اولا فمسألة لايمكن الجزم بها ولا نفيها بما لدينا من وسائط العلم والمعرفة